نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس الثالث والعشرون

عناصر المحاضرة:

1. صلح الحديبيه.
2. مكاتبة الملوك والأمراء.
3. غزوة الغابة.
4. غزوة خيبر.

تهتم الأمم قاطبة بتاريخها، وتعنى بأخبار قادتها وزعمائها، وهي ترى في ذلك تدعيما لأصالتها، وحفاظا على تاريخها، ولا عجب أن يهتم المسلمون بتاريخهم، إذ لا بد أن تعرف الأجيال اللاحقة ما خلفته القرون السابقة من أخبار الهداة المهتدين.

أما سيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحياته، ومعرفة أحواله في الحرب والسلم، فتلك مسألة لم يقتصر الاهتمام بها على المسلمين وحدهم، بل شملت غير المسلمين، ممن أعجبتهم سيرته وإن لم يؤمنوا به ـ صلى الله عليه وسلم ـ، أو كانت دراستهم للسيرة بداية خير لهم ...

إن معرفة ودراسة سيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر من الأهمية بمكان، ولقد كان السلف يقدرون لهذه السيرة قدرها، وكانوا يحفظونها كما يحفظون السورة من القرآن، ويتواصون بتعلمها وتعليمها لأبنائهم، فكان علي بن الحسين ـ رضي الله عنه ـ يقول: " كنا نُعلَّم مغازي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما نعلم السورة من القرآن ".

- وكان الزهري يقول: " علم المغازي والسرايا علم الدنيا والآخرة ".
- وكان إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ يقول: " كان أبي يعلمنا المغازي ويعدها علينا "، ويقول : " يا بني هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوها ".

❍ولا شك أن العلماء ـ قديما وحديثا ـ اهتموا بسيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه بهديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تستقيم الحياة، ويتضح الطريق، فقد قال الله ـ عز وجل ـ: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} [الأحزاب:21]

✉ومن أسباب الاهتمام بدراسة السيرة النبوية: تقوية الإيمان واليقين في قلوب المسلمين، وأنه مهما تكالبت عليهم الأمور، ومهما قوي الشيطان وجنده فإن لهم في رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسوة حسنة، لأن فيها أسمى نماذج الصبر والثبات والجد للحصول على المراد.

🗐صلح الحديبيه:

📝في العام ٦ هـ اشتاق المسلمون لزيارة البيت الحرام (قِبلتهم) بعد ٦ سنوات من هجرتهم عن مكة اضطرارًا، وكان مما أذكى شوقهم رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدخول المسجد محلقين رؤوسهم ومقصرين، فأحرم بالعمرة والكثيرون من أصحابه، وساق النبي - ﷺ - معه الهدي سبعين بعيرًا حتى يكون إيذانًا بسلميته وأنه أراد الخروج زائرًا للبيت ومعظما له.

📝فوجئ النبي - ﷺ - وهو على مسافة يومين من مكة أن قريشًا خرجت مرتدية جلود النمور يعاهد مقاتلوها الله ألا يدخل المسلمون مكة! تفادى رسول الله - ﷺ - الاصطدام بخيل المشركين فقال: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ (ابن هشام)، وبالفعل سلك رجل بهم طريقا وعرًا صعبًا خرجوا منه بعد مشقة وجهد، فأفضوا إلى أرض سهلة منبسطة.

📝واصل المسلمون طريقهم حتى قرب الحديبية فبركت ناقة رسول الله - ﷺ - وهنا قال النبي بحديثه «حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطّة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها». (رواه البخاري).

📝وروى الصحابي جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن معجزة حصلت يوم الحديبية قائلا: «عَطِشَ النَّاسُ يَومَ الحُدَيْبِيَةِ والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ يَدَيْهِ رِكْوَةٌ (إناء من جلد) فَتَوَضَّأَ، فَجَهِشَ(أسرع) النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقالَ: ما لَكُمْ؟ قالوا: ليسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ ولَا نَشْرَبُ إلَّا ما بيْنَ يَدَيْكَ،

فَوَضَعَ يَدَهُ في الرِّكْوَةِ، فَجَعَلَ المَاءُ يَثُورُ بيْنَ أصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ العُيُونِ، فَشَرِبْنَا وتَوَضَّأْنَا. قُلتُ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قالَ: لو كُنَّا مِئَةَ ألْفٍ لَكَفَانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِئَةً». (رواه البخاري).

علمت قريش أن نبي الله - ﷺ - ما جاء محاربًا، فأرسلت من يفاوضه وكانوا كما يلي:

❶(بُدَيْل بن وَرْقَاء): جاء للنبي - ﷺ - بصحبة جماعة من قبيلة خزاعة، وعادوا لقريش يدعونها لترك المسلمين، فكابرت كي لا تتحدث العرب عن دخولهم البيت الحرام بالقوة ورغمًا عنها.

❷(مِكْرَز بن حفص): والذي وصفه النبي - ﷺ - بأنه «هذا رجل غادر» (السيرة الحلبية)

❸(الحُلَيْس بن عَلْقَمَة): كان سيدًا للأحابيش (جماعة أعراب أشداء من قبائل مختلفة) بمكة، وهو من قال لقريش: أيصدّ عن بيت الله من جاءه معظّما له!! وتوعدهم بحشد قومه ضدهم، وهو ما اضطر قريش للمسارعة بإعلان حسن النية. (فتح الباري)

❸(عروة الثقفي): نصح النبي - ﷺ - بمهادنة أبناء بلدته من قريش خاصة وهم متأهبون للقتال، وكان يتناول لحية النبي صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه (على عادة الجاهلية في التفاوض) فضربه المغيرة بن شعبة بنعل السيف (رغم كونه عمه).

عاد عروة لقريش يخبرهم كيف يعظم صحابة النبي - ﷺ - رسول الله حتى أن محبتهم تصل للاقتتال على ماء وضوئه والتكالب على سماع أوامره، وقد زار ملوك العالم العظام كسرى وقيصر والنجاشي فما رأى مثل محمد ومحبة صحبه له، ونصحهم عروة بقبول دخول المسلمين ممتدحا عقل النبي- ﷺ -، فقبلت قريش، ولكنها أقرت أن يكون دخولهم بعد عام كي لا يقال إنها أرغمت. (باب الحديبية في الغزوات للبخاري)

سعت قريش لإرسال ٥٠ رجلًا يقودهم مكرز بن حفص لاستفزاز معسكر المسلمين، فأسرهم حارس الجيش المسلم محمد بن مَسْلَمَة، هرب رئيس تلك العصبة مكرز ومع ذلك عفا النبي عنه احتراما للشهر الحرام أن يسفك فيه دم، وقد بهتت قريش حين عرفوا ذلك.

تكرر الأمر مرات عدة بعد كتابة الصلح أيضًا وأسر المسلمون عشرات الشباب المشركين وكان النبي يطلق سراحهم فسقطت كل حجة لهم في أن النبي - ﷺ - يريد حربًا، وأيقنت قريش أن أي

اعتداء من جانبهم على المسلمين لن تنظر إليه العرب إلا على أنه غدر لئيم للمسلمين، الحق كل الحق في أن يدفعوه- وما أقدرهم- بكل ما أوتوا من قوة، وفي هذا نزل قول الله:(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً) [لفتح: ٢٤] (السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لأبو شهبة).

✉بعث رسول الله - ﷺ - برسل إلى قريش لتأكيد حرصه على حرمة البيت وإيثاره للسلام، وكانوا كالتالي:

❶ خِرَاشُ بْنُ أُمَيَّةَ الْخُزَاعِيُّ: أرادت قريش قتله لولا نصرة حلفائه الأعراب.

❷ عثمان بن عفان رضي الله عنه: أرسله النبي - ﷺ - بعد أن اعتذر عمر بن الخطاب للعداوة الشديدة بينه وبين قومه وقريش في الوقت نفسه والتي تنهي أي جدوى للتفاوض، وقد التقى عثمان بأشراف قريش وعرضوا عليه الطواف بالبيت، ولكنه أبى حتى يكون رسول الله قبله. (ابن هشام).

📁أخرت قريش عودة عثمان بن عفان إلى النبي - ﷺ -، فحسب المسلمون أنها قتلته، فدعا النبي أصحابه إلى البيعة تحت شجرة سَمُرة، مبايعة على الموت.

✉لم يتخلف عن تلك البيعة سوى الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ وكان من المنافقين، وكان أول من بايع من الصحابة أَبو سِنان عبد الله الأَسَدِيّ وتابعه الصحابة، فأسماهم النبي - ﷺ - «أنتم خير أهل الأرض قائلا: «لا يَدْخُلُ النَّارَ، إنْ شاءَ اللَّهُ، مِن أصْحابِ الشَّجَرَةِ أحَدٌ، الَّذِينَ بايَعُوا تَحْتَها» وقد أشار النبي إلى يده اليمنى وقال: «هذه يد عثمان» وكأنه يشاركهم البيعة، وقبل تأزم الأمور عاد عثمان بالفعل إلى معسكر المسلمين». (رواه البخاري).

✉وسميت بيعة الرضوان حيث قال الله سبحانه عنها: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً* وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) (الفتح ١٨-١٩)

❍وهذه مَنقبَةٌ عظيمةٌ للَّذين بايعوا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم تحتَ الشَّجرةِ في الحُديبِيَةِ.

عقد الصلح:

وسمعت قريش بهذه البيعة فداخلهم رعب عظيم، وأسرعوا بإرسال سهيل بن عمرو لعقد الصلح،

(مصالحته على العودة بعد عام، وبقدومه تهلل النبي - ﷺ - وقال: «لقد سهل لكم من أمركم» (رواه البخاري)، فجاء وتكلم طويلاً حتى قبل منه رسول الله - ﷺ - الشروط الآتية:

١ - أن رسول قريش - ﷺ - يرجع مع المسلمين هذا العام، ولا يدخل مكة ويدخلها العام القابل، فيقيم بها ثلاثة أيام، ولا يكون معه من السلاح إلا السيف في القِرَابُ(غِمْدُهُ).

٢ - توضع الحرب بين الفريقين عشر سنين.

٣ - من أراد أن يدخل في عهد محمد - ﷺ - دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

٤ - من التجأ من قريش على المسلمين يرده المسلمون إلى قريش، ومن التجأ من المسلمين إلى قريش لا ترده قريش إلى المسلمين.

ثم دعا علياً وأملى عليه أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل: ما ندري ما الرحمن، اكتب: باسمك اللهم، فأمره رسول الله - ﷺ - أن يكتب ذلك، ثم أملى: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال: أني رسول الله وإن كذبتموني، وأمر علياً أن يمحو ذلك، ويكتب محمد بن عبد الله، فامتنع علي عن المحو، فمحاه - ﷺ - بيده الشريفة، وكتبت نسختان، نسخة لقريش، ونسخة للمسلمين.

قضية أبي جندل:

وبينما الكتاب يكتب جاء أبو جندل - وهو ابن سهيل بن عمرو ممثل قريش في هذا الصلح - وهو يحجل في قيوده، فطلب سهيل رده، فقال النبي - ﷺ - إنا لم نقض الكتاب بعد، فقال: إذن لا أقاضيك، فقال - ﷺ "فأجزه لي" قال: لا، وضرب سهيل أبا جندل، وصاح أبو جندل: يا معشر المسلمين! أرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال - ﷺ - اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً "، وأغرى عمر بن الخطاب أبا جندل ليقتل أباه سهيلاً فلم يفعل.

حل المسلمين من عمرة وحزنهم على قضية الصلح:

ولما فرغ رسول الله - ﷺ - من قضية الكتاب قال للمسلمين: قوموا فانحروا، فما قام أحد، حتى قالها ثلاث مرات فما قام أحد، فدخل على أم سلمة وذكر لها ذلك، فأشارت أن يقوم هو فينحر بدنه ويحلق رأسه، ولا يكلم أحداً، ففعل، وقد نحر جملاً لأبي جهل كان في أنفه بَرَّةٌ مِنْ فِضَّة، ليغيظ به المشركين، فلما رأى الناس قاموا فنحروا وحلقوا، وكاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، وقد نحروا الإبل عن سبعة والبقرة عن سبعة.

وكان حزن المسلمين لسببين: الأول رجوعهم بغير عمرة، والثاني عدم المساواة بين الطرفين، فالمسلمون يردون من جاء إليهم، وقريش لا يردون، فطمأنهم رسول الله - ﷺ - عن الأول بأنهم سوف يعتمرون العام القادم، فالرؤيا صادقة، وفي هذا الجزء من الصلح مراعاة لمشاعر الفريقين، وطمأنهم عن الثاني بأن من ذهب منا إليهم فقد أبعده الله، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

وكان قوله - ﷺ - هذا مبنياً على نظره البعيد، فإن جماعة من المسلمين لما تزل في الحبشة، ولم يكن ينطبق عليهم هذا العهد، فكان يمكن اللجوء إليهم للمحبوسين في مكة، ولكن ظاهر العهد كان في صالح قريش، فلما يزل له أثر شديد في أعماق مشاعر المسلمين، حتى جاء عمر بن الخطاب، وقال: يا رسول الله! ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنيَّةَ في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب! إني رسول الله - ﷺ -، ولست أعصيه، وهو ناصري ولن يضيعني أبداً.

ثم انطلق عمر متغيظاً إلى أبي بكر فقال له ما قال لرسول الله - ﷺ -، وأجابه أبو بكر بما أجاب به رسول الله - ﷺ -، ثم قال لعمر: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق.

عاد رسول الله - ﷺ - مع أصحابه وهو راض بإنجاز الصلح الذي عقده مع قريش، وفي طريقه نادى على عمر بن الخطاب، قائلا «لقد أُنزِلَتْ عليَّ الليلةَ سورةٌ لهي أحَبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمسُ» (متفق عليه) ثم قرأ: (إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) [الفتح ١]، فقال عمر: يا رسول الله! أو فتح هو؟ قال: نعم فطابت نفسه، ورجع.

ثم ندم عمر على ما فرط منه، فعمل لأجله أعمالاً: لم يزل يتصدق ويصوم ويصلي ويعتق حتى رجا الخير.

لقد سمَّى اللهُ صُلْح الحديبية فتحاً، قال تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، وهنا معرفة معنى قوله تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216]

وورد عن الصدِّيق رضي الله عنه في هذا قال: «ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد». ابن هشام

وقال الإمام الزهري: لما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها، دخل في دين الإسلام في هاتين السنتين مثل من دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، وليس أدل على ذلك من أن المسلمين كانوا في الحديبية ١٥٠٠ وكانوا في فتح مكة ١٠ آلاف. (سيرة ابن هشام).

قال ابن القيم: (إنَّ هذهِ الهُدْنةَ كانتْ مِنْ أعظَمِ الفُتُوحِ، فإنَّ الناسَ أَمِنَ بعضُهُمْ بَعْضاً، واخْتَلَطَ المسلمونَ بالكُفَّارِ، وبادَؤوهُم بالدَّعوةِ وأَسْمَعُوهُمُ القُرآنَ، وناظَرُوهُم على الإسلامِ جَهْرَةً آمِنينَ، وظَهَرَ مَنْ كانَ مُخْتَفِياً بالإسلامِ، ودَخَلَ فيهِ في مُدَّةَ الهُدْنةِ مَنْ شاءَ اللهُ أنْ يَدْخُلَ، ولهذا سَمَّاهُ اللهُ فَتْحاً مُبيناً). انتهى.

وقال النوويُّ: (قالَ العلماءُ: والمصلحةُ الْمُترتِّبةُ على إتمامِ هذا الصُّلْحِ ما ظَهَرَ مِنْ ثَمَراتِهِ الباهرةِ وفوائدِهِ الْمُتَظاهِرَةِ التي كانتْ عاقِبَتُها فتْحَ مكَّةَ وإسلامَ أهلِها كُلِّها، ودُخُولَ الناسِ في دِينِ اللهِ أفواجاً) انتهى.

الإباء عن رد المهاجرات:

ثم جاء نسوة مؤمنات فسأل أولياؤهن أن يردهن عليهم بالعهد الذي تم في الحديبية، فرفض طلبهم هذا ؛ بدليل أن الكلمة التي كتبت في المعاهدة بصدد هذا البند هي: (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته علينا) ، فلم تدخل النساء في العقد رأساً، وأنزل الله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ } [الممتحنة:١٠]. فحرم المؤمنات على الكفار، والكافرات على المؤمنين.

فكان رسول الله - ﷺ - يمتحن هؤلاء المهاجرات بما أمر في قوله - تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً، وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الممتحنة:١٢].

فمن أقرت بهذه الشروط قال لها: قد بايعتك - كلاماً دون مصافحة -، ولم يكن يردهن، وطلق المسلمون أزواجهم الكافرات، وفرقوا بين المسلمات وأزواجهن الكفار.

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم، فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، تزوج بإحداهما معاوية، وبالأخرى صفوان بن أمية.

دخول خزاعة في عهد المسلمين:

واختارت خزاعة أن يكونوا مع رسول الله - ﷺ - في هذا الميثاق، فدخلوا في عهده وقد كانوا حلفاء بني هاشم من زمن الجاهلية ودخلت بنو بكر في عهد قريش، فكانوا هم السبب في فتح مكة، وسيأتي...

حل قضية المستضعفين:

أما المسلمين المعذبون في مكة، فانفلت منهم رجل اسمه أبو بُصير، وجاء إلى المدينة، فأرسلت قريش رجلين إلى النبي - ﷺ - ليرده، فرده، فلما نزل بذِي الحُلَيْفَةِ قتل أبو بصير أحدهما، وفر الآخر حتى انتهى إلى النبي - ﷺ - ، وقال: قتل صاحبي وإني لمقتول، وجاء أبو بصير فزجره النبي - ﷺ - ، فعرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، أي ساحله، وانفلت أبو جندل فلحق به، فجعل لا يخرج رجل من قريش قد أسلم إلا لحق به، حتى اجتمعت منهم جماعة، وأخذت تعترض كل عير لقريش تخرج إلى الشام، فتهجم عليها وتأخذ أموالها، فأرسلت قريش إلى النبي - ﷺ - تناشده الله والرحم أن يستقدمهم إلى المدينة، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل إليهم فقدموا، وانحلت المشكلة.

أثر الصلح:

كان لهذا الصلح أثر كبير في تسيير الدعوة الإسلامية، فقد وجد المسلمين فرصه اللقاء بعامة العرب، ودعوتهم إلى الله، فدخل الناس في الإسلام بكثرة، وبلغ عددهم في عامين ما لم يبلغ خلال تسعة عشر عاماً، وقد جاء كبار قريش وخلاصتها: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة إلى رسول الله - ﷺ - ، طائعين راغبين، يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويبايعونه على الإسلام، ويبذلون له كل ما يملكون من غال ورخيص، ويفدونه بالنفوس والأرواح،

والمواهب والقدرات، وقد قال رسول الله - ﷺ - ، حينما جاءوا: "إن مكة قد ألقت إلينا أَفْلَاذَ كَبِدِهَا ".

"ولمّا عادت قريش إلى مكة بعد صلح الحديبية ذهب عمرو بن العاص إلى الحبشة عند أصحمة النجاشي، فوجده اعتنق الإسلام، فاعتنق الإسلام هناك على يد النجاشي في السنة الثامنة للهجرة، ثم أخذ سفينة متجهًا إلى المدينة المنورة، فالتقى في الطريق بخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، فدخل ثلاثتهم المدينة المنورة في صفر عام 8 هـ معلنين إسلامهم. وحينها قال الرسول: "إن مكة قد ألقت إلينا أَفْلَاذَ كَبِدِهَا ".

مكاتبة الملوك والأمراء:

ولما عاد رسول الله - ﷺ - من عمرة الحديبية، وقد أبرم الصلح مع قريش، وأمن جانبهم، بدأ بإرسال الكتب إلى الملوك والأمراء، يدعوهم فيها إلى الإسلام، ويذكرهم بمضاعفة مسئولياتهم، وهذه هي تلك الكتب بإيجاز:

١ - كتابه - ﷺ - إلى النجاشي: أصحمة بن الأبجر ملك الحبشة:

كتب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة. سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الإسلام، فإني أنا رسوله، فأسلم تسلم: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)، فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومك".

وبعث الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري، فلما أخذه النجاشي وضعه على عينيه، ونزل عن سرير، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وكتب إلى النبي - ﷺ - بإسلامه وبيعه، وزوج، أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان بالنبي - ﷺ - وأصدقها من عنده أربعمائة دينار، وأرسلها والمهاجرين في سفينتين مع عمرو بن أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، فقدم بهم والنبي - ﷺ - بخيبر.

✉مات النجاشي هذا في رجب سنة ٩ هـ فنعاه النبي - ﷺ - يوم وفاته، وصلى عليه صلاه الغائب، وخلفه على الحبشة نجاشي آخر، فكتب إليه يدعوه إلى الإسلام، ولا يدرى هل أسلم هذا الثاني أو لم يسلم؟

٢ - كتابه - ﷺ - إلى المقوقس ملك الإسكندرية:

✉وكتب النبي - ﷺ - كتاباً إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية وهو: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط، {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } .

✉وبعث الكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة، فكلمه حاطب وأبلغه الكتاب، فأكرمه المُقَوْقِسْ، ووضع الكتاب في حُقّ من العَاجِ، وختم عليه، واحتفظ به، وكتب إلى النبي - ﷺ - يقر فيه بأن نبياً قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، ولكنه لم يسلم، وأهدى جاريتين: مارية وسيرين، وكان لهما في القبط مكان عظيم، وأهدى كسوة، وبغلة اسمها دُلْدُل، فاختار النبي - ﷺ - مارية لنفسه، والبغلة لركوبه، ووهب سيرين لحسان بن ثابت - رضي الله عنه -.

٣ - كتابه - ﷺ - إلى كسرى أبرويز ملك فارس:

كتب إليه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة: {لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ} فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك".

وبعث الكتاب مع عبدُ الله بنُ حُذَافَةَ السَّهْميُّ، وأمره أن يدفعه على عظيم البحرين، ليدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرئ عليه الكتاب مزقه، وقال: عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي، فلما بلغ ذلك رسول الله - ﷺ - قال: "مزق الله ملكه" ووقع كما قال، فقد انهزم جيشه أمام الروم هزيمة منكرة، ثم انقلب عليه ابنه شيرويه، فقتله وأخذ ملكه، ثم استمر فيه التمزق والفساد إلى أن استولى عليه الجيش الإسلامي في زمن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، ثم لم تقم لهم قائمة.

٤ من - النبي - ﷺ - إلى قيصر ملك الروم:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، وأسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} ".

✉وبعث الكتاب مع دِحْيَة بن خَليفة الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عَظِيمِ بُصْرَى، ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر قد جاء من حمص إلى بيت المقدس ماشياً على قدميه، شكراً لله تعالى على ما حصل له من الفتح والانتصار على الفرس، فلما جاءه الكتاب أرسل رجاله ليأتوا برجل من العرب يعرف النبي - ﷺ - ، فوجدوا أبا سفيان في ركب من قريش، فأتوا بهم إلى هرقل، فدعاهم هرقل في مجلسه، وحوله عظماء الروم، فسألهم أيهم أقرب إليه - ﷺ - نسباً، فأخبروه بأنه أبو سفيان، فأدناه منه وأجلس بقية الناس وراءه، وقال لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل - أي النبي - ﷺ - فإن كذبني فكذبوه، فاستحيى أبو سفيان أن يكذب، وسأله هرقل: كيف نسبه فيكم؟ فقال: هو فينا ذو نسب، فقال: فهل قال هذا القول منكم أحد قبله؟ قال: لا، قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، قال: فهل يغدر؟ قال: لا، وهنا تمكن أبو سفيان من إدخال كلمة مريبة فقال: ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: فهل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، قال: وماذا يأمركم؟ قال: يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، قال هرقل معلقاً على هذا الحوار: ذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وذكرت أنه لم يقل أحد منكم هذا القول قبله، قلت: فلو كان كذلك لقلت: رجل يأتم بقول قيل قبله، وذكرت أنه لم يكن من آبائه من ملك، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، ذكرت أنكم لم تكونوا تتهمونه بالكذب، فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله، وذكرت أن ضعفاء الناس اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وذكرت أنه لا يرتد منهم أحد، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، ونهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا الكتاب فقرأه، فارتفعت الأصوات وكثر اللغط، فأخرج أبا سيفان ومن معه، فلما خرج أبو سفيان قال لأصحابه: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ (لقدْ عَظُمَ شأنُ مُحمَّدٍ

الَّذي كُنَّا نَدْعوه اسْتِهزاءً وسُخْريةً عِندَما كان يُحَدِّثُنا بهذه الكُنْيةِ، فنَقولُ: هذا ابنُ أبي كَبْشةَ يُكَلِّمُ مِن السَّماءِ! وأبو كَبْشةَ أبوه مِن الرَّضاعةِ، واسْمُه الحارثُ بنُ عَبدِ العُزَّى)، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، ولم يزل أبو سفيان موقناً بعده بظهور أمر رسول الله - ﷺ - حتى وفقه الله للإسلام.

✉وأجاز هرقل دحية بن خليفة الكلبي بمال وكسوة، ثم رجع إلى حمص، فأذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ في دَسْكَرَةٍ له بحِمْصَ، وأمر بأبوابها فأغلقت، ثم قال: يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم؟ فتتابعوا هذا النبي، فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وأَيِسَ مِنَ الإيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، فقال لهم: إني قُلتُ مَقالتي آنِفًا أَخْتَبِرُ بهَا شِدَّتَكُمْ علَى دِينِكُمْ، فقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا له ورَضُوا عنْه.

✉ويتبين من هذا أن قيصر عرف النبي - ﷺ - وصدق نبوته تمام المعرفة، ولكن غلب عليه حب ملكه فلم يسلم، وباء بإثمه وإثم رعيته كما قال النبي - ﷺ -.

✉أما دحية بن خليفة الكلبي فإنه لما كان في طريقه راجعاً إلى المدينة قطع عليه الطريق رجال من بني جذام، وانتهبوه، حتى لم يتركوا معه شيئاً، فلما بلغ المدينة، وأخبر رسول الله - ﷺ -، وبعث إليهم زيد بن حارثة في خمسمائة مقاتل، فأغاروا وقتلوا وغنموا ألف بعير، وخمسة آلاف شاة، وسبوا مائة من النساء والصبيان، وأسرع زيد بن رِفَاعَةُ الجُذَامِيّ أحد رؤسائهم، إلى المدينة - وكان أسلم هو ورجال من قومه، ونصروا دحية حين قطع الطريق عليه - فرد عليه رسول الله - ﷺ - الغنائم والسبى.

٥ - وكتب رسول الله - ﷺ - كتابا إلى الحارث بن أبي شَمِر الغساني أمير دمشق من قبل قيصر. وهاك نص الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر: سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك".

✉وبعث الكتاب مع شُجَاعُ بنُ وهْبِ الأسَدِيّ - من أسد بن خزيمة - فلما قرأ الكتاب رمى به، وقال: من ينزع ملكي مني؟ واستعد ليرسل جيشاً يغزو المسلمين، وقال لشجاع بن وهب: أخبر صاحبك بما ترى، واستأذن قيصر في حرب رسول الله - ﷺ - فثناه قيصر عن عزمه، فأجاز الحارث شجاع بن وهب بالكسوة والنفقة، ورده بالحسنى.

٦ - وكتب - ﷺ - كتابا إلى أمير بصرى:

يدعوه إلى الإسلام، وبعث الكتاب مع الحارث بن عمير الأزدي - رضي الله عنه -، فلما بلغ مؤتة - من عمل البلقاء في جنوب الأردن - تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فضرب عنقه.

وكان هذا أشد عمل عدواني تجاه الرسل، فلم يقتل لرسول الله - ﷺ - رسول غيره، وقد وجد - ﷺ - على ذلك وجداً شديداً، حتى أفضى ذلك إلى معركة مؤته، وسنأتي على ذكرها.

٧ - وكتب - ﷺ - كتابا إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هَوْذَة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك".

وبعث الكتاب مع سَلِيطُ بْنُ عَمْرٍو العَامِرِيُّ، فأكرمه وأجازه، وكساه من نسيج هجر، وكتب في الجواب: "ما أحسن ما تدعوا إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهابني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك"، فلما بلغ ذلك رسول الله - ﷺ - قال: لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يديه، فمات منصرف رسول الله - ﷺ - من فتح مكة.

٨ - وكتب رسول الله - ﷺ - كتابا إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، دعاه فيه إلى الإسلام، وبعث هذا الكتاب مع العلاء بن الحضرمي، فأسلم المنذر، وأسلم بعض أهل البحرين، وبقى الآخرون على دينهم من اليهودية أو المجوسية، فكتب المنذر يخبر بذلك رسول الله - ﷺ - ويستفتيه، فكتب إليه يأمره أن يترك للمسلمين ما أسلموا عليه، ويأخذ من اليهود والمجوس الجزية، وأنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك.

٩ - وكتب رسول الله - ﷺ - كتابا إلى ملكي عُمان جيفر وأخيه وهو:

"بسم الله الر حمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجُلَنْدَي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوكم بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله - ﷺ -إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل، وخيل تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما"

وبعث الكتاب مع عمرو بن العاص - رضي الله عنه -، فلما قدم عمان لقي عبد بن الجلندي، فسأله عبد عما يدعو إليه، فقال: إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله، وبعد حوار جرى بينهما سأله عبد عما يأمر به، فقال: يأمر بطاعة الله وينهى عن معصيه، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب، قال عبد: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، لكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً - تابعاً -،قال عمرو: إن أسلم أخوك ملكه رسول الله - ﷺ - على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم، فقال: إن هذا لخلق حسن، ثم سأله عن الصدقة فأخبره بتفاصيلها، فلما ذكر المواشي قال: ما أرى قومي يرضون بهذا، ثم إن عبداً أوصل عمراً إلى أخيه جيفر، فأعطاه الكتاب فقرأه، ثم أعطاه لأخيه، وسأل عمراً عما فعلته قريش، فأخبره أنهم أسلموا، وأنه إن أسلم يسلم، وإلا وطئته الخيل وتبيد خضراءه، وأرجأ جيفر أمره إلى غد، فلما كان الغد أبدى القوة والصمود، ولكنه خلا بأخيه واستشاره، فلما كان بعد الغد أسلم هو وأخوه، وخليا بين عمرو وبين أخذه الصدقة، وكانا عوناً على من خالفه، أرسل هذا الكتاب إلى عبد وجيفر بعد فتح مكة، وأما بقية الكتب فقد أرسلت بعد عودته - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية.

✉وبهذا نفهم كلام ابن قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

✉وقال ابن كثير: فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العمل النافع والإيمان. انتهى.

☜يجب أن نستفيد من صلح الحديبية بعد رؤية الخير العميم الذي نتج عنه، أن نرضى بشرع الله تعالى، ولا نقول: نقبل بشرع الله تعالى؛ وفارق كبير جدًّا بين أن نرضى بحبٍّ وبين الاقتناع، فإنه حتى لو كانت عيوننا لا ترى الخير فإننا على يقين أن الخير موجود، ولكننا لا نراه الآن، وقد نموت ولا نرى هذا الخير، وعلينا أن نكون على يقين أن فيه الخير، قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [البقرة: 216]. وقال أيضًا: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: 19].

☜فنحن نريد أن نصل إلى درجة التسليم الكامل لرب العالمين، قال الله في كتابه: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65].

درجة التسليم معناها الرضا الكامل بحكم الله تعالى، وأن نوقن يقينًا جازمًا أن الخير فيما اختاره الله لنا. والصحابة رضي الله عنهم قد تعلموا من درس الحديبية، فالصحابة رأوا الخير الذي حدث بعد صلح الحديبية، مع أنه في وقت الصلح لم يروا هذا الخير، ووقت مجيء أبي جندل بالذات لم يروا هذا الخير، فكانوا لا يرون إلا الشر، حتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد حاول قدر المستطاع بعد ذلك أن يكفِّر عن هذا الخطأ الذي حدث منه في يوم الحديبية، يقول: "فعملتُ لذلك أعمالاً"، فعمل لذلك خيرًا كثيرًا للتكفير عن هذا الأمر، فيقول: "فما زلت أتصدق وأصلي وأصوم وأعتق؛ مخافة كلامي الذي تكلمت به يوم الحديبية حتى رجوت أن يكون خيرًا".

واستفاد من الدرس بعد ذلك في كل حياته، حتى كان يقول رضي الله عنه معلِّمًا المسلمين: "أيها الناس، اتهموا الرأي على الدين"[وقال الهيثمي: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح].

فقد يكون لنا رأيٌ في قضية من القضايا نشعر أنها أفضل من الحكم الشرعي، فالواجب أن نتهمْ رأينا ونقدِّمْ حكم الشرع.

المراجع:

1. روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.
2. الرحيق المختوم المباركفوري.
3. الدروس المستفادة من صلح الحديبية: د. راغب السرجاني.
4. أهمية دراسة السيرة النبوية: إسلام ويب.